الثقافة و اللغة



الدكتور

حسام الدين فياض

الأستاذ المساعد في قسم علم الاجتماع

٢٠١٧

نحو علم اجتماع تنويري

Sociology of Culture

- تمهيد:

يعتبر مفهوم الثقافة من المفاهيم الهامة في العلوم الاجتماعية، إنه ضروري لها بصورةٍ ما للتفكير في وحدة الإنسانية، ضمن التنوع في غير معناها البيولوجي. باعتبار أن مفهوم العرقية فَقَدَ مصداقيته بقدر ما يتقدم علم الوراثة في مجال الثورة البيولوجية.

يُنظر إلى الإنسان باعتباره كائناً ثقافياً، حيث تمثلت صيرورة الأنسنة عبر تاريخه الطويل من التأقلم الوراثي مع المحيط الطبيعي إلى التأقلم الاجتماعي والثقافي. والدليل على ذلك أنه حدث تراجعاً كبيراً للغرائز التي عُوضت تدريجياً بالثقافة، أي بذلك التأقلم المتخيل والمراقب من قبل الإنسان الذي بدا أكثر وظيفيةً من التأقلم الوراثي لأنه أكثر منه مرونة بكثير وأكثر قابلية للنقل بيسر وسرعة.

إن قدرة الإنسان على إنتاج الثقافة هي أهم خاصية تميزه عن باقي المخلوقات. فالعادات، والتقاليد، والأفكار، التي يشارك فيها أفراد المجتمع جيلاً بعد جيل ويحولها إلى قيم وتراث جماعي.

وعلى العموم نجد أن سؤال الثقافة شغل السوسيولوجيين ولا يزال. لأنهم ارجعوا الثقافة إلى لحظة ما بعد الطبيعة، ولأنها كذلك فهي طريقة في معرفة الأشياء وفي إدراكها. والمعرفة والإدراك يتمان من خلال إنتاج صور ذهنية تعطي للطواهر والأشياء معناً.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه لماذا يحتاج الإنسان إلى معايير و رموز للعقل والسلوك؟ **لسبب بسيط وهو أن السلوك لا يحدث إلا إذا كانت هناك غاية للفعل ومعنى له**. والدليل على ذلك أن الأفعال الغريزية لا تحدث من خلال غايات ذهنية مدركة وواعية، فهي بواعث

متعلقة بالوجود البيولوجي والحاجات العضوية. **لذلك لا ثقافة خارج المجتمعات الإنسانية.**

انطلاقاً مما سبق سنحاول دراسة مفهوم الثقافة وارتباطاته المتداخلة من خلال تعريف مفهوم الثقافة لغوياً واصطلاحياً مع توضيح خصائصها، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، سعت الدراسة إلى توضيح العلاقة الارتباطية بين الهوية والثقافة وكيف تساهم الهوية في بلورة المعالم الثقافية لمجتمع ما، بالإضافة إلى توضيح دور اللغة المفصلي في إيجاد تلك العلاقة بينهما على اعتبار أنه لا هوية بدون لغة وإنتاج فكري ولا ثقافة بدون هوية لأن المتحدثين يعبرون عن هويتهم وهوية الآخرين من خلال استخدامهم للغة باعتبارها ترمز إلى واقع ثقافي معين، كما لا حضارة بدون هوية ثقافية كونها ينبوع الحضارات إن جاز لنا التعبير.

أولاً- مفهوم الثقافة:

لم يشهد على الإطلاق أي مفهوم في العلوم الإنسانية تداولاً وازدهاراً كما شهد مفهوم الثقافة، ومع ذلك يبقى الغموض والالتباس متلازمين كلما طُرح الموضوع للنقاش، وهذا يرجع إلى أن **لكل مجتمع ثقافته الخاصة، التي يتسم بها ويعيش في رحابها**، كما أن لكل ثقافة بالمقابل ميزاتها وخصوصيتها ومقوماتها المادية التي تتألف من طرائق المعيشة والأدوات التي يستخدمها أفراد المجتمع في قضاء حوائجهم. وللثقافة أيضاً مقوماتها المعنوية التي تتمثل في مجموع العادات والتقاليد التي تسود مجتمع ما، ويتوارثها أفراده جيلاً بعد جيل، مثل القوانين والأعراف والقيم والقواعد الأخلاقية التي تحدد طبيعة العلاقات بين بعضهم البعض.

وبما أن **الإنسان كائن اجتماعي**، فإن سلوكه يصدر في أشكال وأنماط منتظمة، فيها شيء من الاطراد والتواتر، والدليل على الكيفية التي يمارس بها الإنسان شؤون حياته اليومية، حيث نجد أن يتكرر بالصورة نفسها تقريباً ضمن جماعة ما وثقافة معينة.

بذلك فإن الثقافة لا توجد إلا بوجود المجتمع، وعناصر المجتمع الأولى هي الأفراد، والفرد كائن اجتماعي كما ذكرنا أعلاه، والمجتمع لا يقوم ويبقى إلا بالثقافة، وفيه تتكون شخصية الإنسان وتحمل سماته، فالثقافة طريق خاص ومميز لحياة الجماعة ونمط متكامل لحياة أفرادها سواءً أكانت بدائية أم متقدمة.

* **الثقافة لغوياً**: في حقيقة الأمر لم يعرف لسان العرب كلمة ثقافة طبعاً بمفاهيمها الفلسفية و الانثروبولوجية، بل عرف العرب الأوائل فقط الأفعال والمصادر المشتقة من جذر " **ثقف** " والتي أخذت دلالاتها عندهم **بمعنى الحذق والفهم وسرعة التعلم، وقالوا: التثقيف تقويم الاعوجاج**. بذلك تشتق كلمة الثقافة من الفعل **ثَقُفَ، يثقُفَ، ثَقافةً، فهو ثَقْفٌ**. ثقف الشخص أي أصبح حاذقاً فطناً بمعنى انكب على المطالعة حتى ثقُف. ثَقِفَ الشيءَ ثَقْفاً وثِقافاً وثُقُوفةً: أي **حَذَقَه**. ورجل ثَقْفٌ وثَقِفٌ وثَقُفٌ: حاذِقٌ فَهِم، وأَتبعوه فقالوا رجل ثَقْفٌ لَقْفٌ إذا كان ضابِطاً لما يَحْوِيه قائماً به.

* **الثقافة اصطلاحاً**: في أدبيات الثقافة الغربية كانت تعني **الطقوس الدينية في القرون الوسطى**، لكنها في القرن السابع عشر كانت تعبر عن (حالة الشيء المحروث) أي " **فلاحة الأرض** ". وقد اكتسبت كلمة الثقافة (**Culture**) معناها الفكري في أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، **حيث اتخذت منحى آخر يعبر عن التكوين الفكري عموماً، وعن التقدم الفكري للشخص خصوصاً، وعما يتطلبه ذلك من عمل، وما ينتج عنه من تطبيقات.**

ويختلف مفهوم الثقافة من باحث إلى آخر، باختلاف المجال المعرفي واختلاف المنطلقات والمقولات الفكرية والفلسفية والقناعات الشخصية. ويعني هذا أن الثقافة شأنها شأن الجماعة كثيرة الاستخدام، ويستحيل الإشارة إلى تعريف محدد لها في مجال العلوم الاجتماعية.

ولا شك أن أقدم تعريف لها وأكثره شيوعاً حتى الآن تعريف **إدوارد تايلور** الذي قال بأن الثقافة " **هي هذا الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع** ".

أما **روبرت بيرستد** فيعرفها " **هي ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه، أو نقوم بعمله كأعضاء في المجتمع** "، إلا أن تعريف **غي روشيه** أكثر شمولاً وعمقاً، حيث يرى بأن الثقافة " **هي مجموعة من العناصر لها علاقة بطرق التفكير والشعور والفعل، وهي طرق صيغت تقريباً في قواعد واضحة والتي اكتسبها وتعلمها وشارك فيها جمع من الأشخاص وتستخدم بصورة موضوعية ورمزية في آن معاً، من أجل تكوين هؤلاء الأشخاص في جماعة خاصة ومميزة** ".

وتعني الثقافة حسب **أنتوني غدنز** " **هي جوانب الحياة الإنسانية التي يكتسبها الإنسان لا بالوراثة. ويشترك أعضاء المجتمع بعناصر الثقافة تلك التي تتيح لهم مجالات التعاون والتواصل. وتمثل هذه العناصر السياق الذي يعيش فيه أفراد المجتمع** ". ويتعلم البشر حسب غدنز دائماً خصائص الثقافة ومدلولاتها عبر عملية التنشئة الاجتماعية. وتنشئة الطفل هي التي يصبح فيها الطفل العاجز (تدريجياً) ومن خلال اتصاله بالآخرين كائناً بشرياً مدركاً لذاته وعارفاً ملماً بالأساليب وأنماط السلوك المتبعة.

وفي النهاية يمكننا تعريف الثقافة " **هي كل أساليب الحياة التي قام بها ويقوم بها الإنسان ويتعلمها ويعلمها وينقلها إلى الأجيال المختلفة ويشترك فيها مع غيره من أعضاء الثقافة، وهي تشمل أيضاً كل أنماط السلوك والعادات والتقاليد والأفكار والمعتقدات والقيم والمثل العليا والمحرمات وجميع الأساليب الاتصال والفنون والآداب والأشياء المادية الناتجة عنها** ". وتتميز الثقافة بطبيعة الحال بعدة **خصائص** أهمها، ما يلي:

- ✓ أنها ظاهرة إنسانية، أي أنها فاصل نوعي بين الإنسان وسائر المخلوقات.
- ✓ أنها مكتسبة، إذ يكتسب الفرد الثقافة بحكم انتمائه لجماعة ما.
- ✓ أنها تنبؤية، بما أنها تحدد سلوك وأسلوب الأفراد بالإمكان التنبؤ بما يمكن أن يتصرف به فرد معين ينتمي إلى ثقافة معينة.
- ✓ **الثقافة متكاملة**، أي يوجد قادر من الاتساق والانسجام بين عناصر الثقافة المختلفة مما يسمح بتكوين نمط متماسك مترابط يعمل على امتصاص المتغيرات المختلفة داخل وحدة كلية هي الإطار العام لثقافة المجتمع.
- ✓ **الثقافة اجتماعية ونسبية**، فلكل جماعة منظمة تكوينها الثقافي الذي يكون تأثيره في تشكيل ملامح وأبعاد شخصية الفرد والأنماط السلوكية للجماعة.
- ✓ **أنها ثابتة ومتغيرة**، فعناصر الثقافة ومكوناتها منها ما يظل ثابتاً ولا يعتريه التغير كالقيم الاجتماعية والعقائد الشرعية والأصول الدينية، ومنها ما يخضع للتغيير والتطوير كالجوانب المادية.
- ✓ **أنها تحديدٌ لذات الإنسان وعلاقاته مع نظرائه، ومع الطبيعة، ومع وراء الطبيعة**، من خلال تفاعله معها، وعلاقاته بها، في مختلف مجالات الحياة.

- ✓ **أنها تساعد على التكيف**، فالتغيرات الثقافية وعملية التغير نفسها تمثل عملية تكيف، فالعناصر الثقافية التي لا تحقق حاجات الأفراد وتطلعاتهم عادةً ما تزول وتحل محلها عناصر أخرى تعمل على تكيف الفرد في ثقافته مما يساعد على استمراريتها.
- ✓ **أنها إنجاز كمي مستمراً تاريخياً**. فهي بقد ما تضيف من جديد تحافظ على التراث السابق، وتجدد قيمه الروحية والفكرية والمعنوية، وتوحد معه هوية الجديد روحاً ومساراً ومثلاً وهذا هو أحد أهم محركات العملية الثقافية.

نستنتج مما تقدم أن عملية تعقد الثقافة يرجع إلى تراكم التراث الثقافي وتداخل الأنماط الثقافية التي تدخل في تكوين الثقافة في المجتمع، وكل نمط ثقافي في يتكون من عدد كبير من العناصر الثقافية. فالثقافة هي التي تمنح الإنسان قدرته على التفكير في ذاته، وهي التي تجعل منه كائناً يتميز بالإنسانية المتمثلة بالعقلانية والقدرة على النقد والالتزام الأخلاقي وعن طريقها نهتدي إلى القيم ونمارس الاختيار. باعتبارها وسيلة الإنسان للتعبير عن نفسه والتعرف على ذاته مشروع غير مكتمل وإعادة النظر في إنجازاته دون توانٍ عن مدلولات جديدة وإبداع أعمال يتفوق فيها.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه علينا. ما هو الفرق بين الثقافة والحضارة؟ من منطلق أن " **كل حضارة ثقافة وليست ثقافة حضارة** ".

ثانياً- الهوية والثقافة:

في هذا السياق سنسعى إلى توضيح العلاقة الارتباطية بين الهوية والثقافة وكيف تساهم الهوية في بلورة المعالم الثقافية لمجتمع ما، بالإضافة إلى دور اللغة المفصلي في إيجاد تلك العلاقة بينهما على اعتبار أنه لا هوية بدون لغة وإنتاج فكري ولا ثقافة بدون هوية، ولا حضارة بدون هوية ثقافية كونها ينبوع

الحضارات (إن جاز لنا التعبير). بذلك ستنحصر مناقشتنا للأفكار المطروحة أعلاه من خلال تناول المفاهيم التالية والعلاقة القائمة بينها بالدراسة والتحليل، وهي كالآتي:

١- مفهوم الهوية:

عرف مفهوم الهوية انتشاراً واسعاً، حيث اكتسح في وقت قصير العلوم الإنسانية وخاصةً الاجتماعية، وفرض نفسه في تحليل حقائق متنوعة. وعلى الرغم من ذلك، فإنه من الصعب أن تجد تعريفاً متوافقاً عليه لمفهوم الهوية. وقد أثبتت الدراسات السوسيولوجية من أن لكل جماعة أو أمة ما مجموعة من الخصائص والمميزات الاجتماعية، والنفسية، والمعيشية، والتاريخية المتماثلة، التي تعبّر عن كيان ينصهر فيه قوم منسجمون ومتشابهون بتأثير هذه الخصائص والميزات التي تجمعهم.

وفي حقيقة الأمر يعاني مفهوم الهوية من مشاكل عديدة، فمن صعوبة الحديث عن الهوية مثلاً، أنه حديث الذات عن نفسها. لذا فإن مشاعر الهوية مشاعر دفاعية ضد إرادة السحق التي يبديها الآخر، كذلك لا يمكن فصل الهوية عن الحركية الاجتماعية، وما يجري فيها من تدافع وصراع. وهنا تتداخل حدود الهوية والسلطة والإيديولوجيا. لكن السؤال الذي يطرح نفسه **ما هي الهوية ؟**

في البداية يجب أن نشير أن المقصود في هذا العنصر هو الهوية الثقافية لجماعة بشرية معينة، ذلك أن جوهر الهوية الجماعية هو الثقافة بذلك فإن الهوية الجماعية تستمد ملامح مقوماتها من ثقافة المجتمع على اعتبار أن الثقافة تشكل المجموع المنسجم والمستمر للمعاني والرموز المكتسبة المشتركة التي تعمل الجماعة على توصيلها وإعادة إنتاجها من خلال مختلف القنوات التي تنسجها من أجل هذه الغاية.

أما عن مفهوم **الهوية فهو لفظ تراثي قديم، معناه أن يكون الشيء هو هو** وليس غيره، أي ليس له مقابل مما يدل على **ثبات الهوية**. وهو قائم على التطابق أو **الاتساق في المنطق**. وهو **نقيض الغيرية** وقد تكون الغيرية نسبية وليست كلية لتحدد انحراف الهوية. فإن هوية الشيء هي ثوابته، التي تتجدد لا تتغير، تتجلى وتفصح عن ذاتها، دون أن تخلي مكانها لنقيضها، طالما بقيت الذات على قيد الحياة.

ويشير **المعنى العام** للكلمة إلى الامتياز عن الغير، **والمطابقة للنفس، أي خصوصية الذات**، وما يتميز به الفرد أو المجتمع عن الأغيار من خصائص ومميزات، ومن قيم ومقومات. أي حقيقة الشيء المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية التي تميزه عن غيره وتسمى أيضاً وحدة الذات.

ومفهوم **الهوية** خاص بالإنسان والمجتمع، الفرد والجماعة، وهي **موضوع إنساني خالص** أي **ظاهرة إنسانية، فالإنسان هو الذي ينقسم على نفسه، وهو الذي يشعر بالفارقة أو التعالي أو القسمة بين ما كائن وما ينبغي أن يكون، بين الواقع والمثال، وبين الحاضر والماضي، بين الحاضر والمستقبل**. وهذا يعني أن الهوية هي إحساس الفرد أو الجماعة بالذات، إنها نتيجة وعي الذات، بأنني أو نحن نمتلك خصائص مميزة ككينونة تميزني عنك وتميزنا عنهم. فالطفل الجديد قد يمتلك هوية ما عند ولادته من خلال اسمه وجنسه وأبوته وأمومته ومواطنته، وهذه الأشياء في كل حال لا تصبح جزءاً من هويته حتى يعي الطفل نفسه بها.

وعلى الرغم من أن **الهوية موضوع ميتافيزيقي فإنها مسألة نفسية وتجربة شعورية فالإنسان قد يتطابق مع نفسه أو ينحرف عنها في غيرها**. الإنسان الواحد ينقسم إلى قسمين: **هوية وغيرية، أو يشعر بالاغتراب إن مالت الهوية إلى غيرها أو انحرفت عن ذاتها. فالاغتراب لفظ فلسفي و الانحراف لفظ**

نفسي. والهوية أن يكون الإنسان هو نفسه متطابقاً مع ذاته. والهوية خاصية للنفس لا للبدن، هي حالة نفسية وليست حالة بدنية.

يمكن لنا تعريف **الهوية**: **بأنها الخصوصية والتميز عن الغير أو مجموعة من المميزات التي يمتلكها الأفراد، وتساهم في جعلهم يحققون صفة التفرد عن غيرهم، وقد تكون هذه المميزات مشتركة بين جماعة من الناس سواءً ضمن المجتمع**. أو **أنها كل شيءٍ مشترك بين أفراد مجموعة محددة، أو شريحة اجتماعية تساهم في بناء محيط عام لدولة ما، ويتم التعامل مع أولئك الأفراد وفقاً للهوية الخاصة بهم**.

وفي النهاية يمكننا القول أن الهوية الثقافية والحضارية لأمة من الأمم، **هي القدر الثابت، والجوهري، والمشترك من السمات والقسمات العامة، التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل للشخصية الوطنية طابعاً تتميز به عن الشخصيات الوطنية الأخرى**.

٢- الهوية وعلاقتها باللغة:

يذهب علماء اللغويات إلى أن اللغة منظومة علامات أودعها **مراسُ الكلام في الجمهور المتكلم**، وأن **المنظومة اللغوية** ناتجة عن تبلور اجتماعي، وأن الطبيعة الاجتماعية هي طابع داخلي للمنظومة، **وإنه لا توجد حقيقة لسانية خارج الديمومة والجمهور المتكلم. وإن الزمن وحده يأذن للقوى الاجتماعية بممارسة تأثيراتها على اللغة.**

تعتبر **اللغة العامل** الضروري الملازم لكل **إنجاز تنموي**، بما أنها موضوع للتعليم وللبحث، كما أنها ركن أساسي في كل مشروع اقتصادي فهي ليست مجرد أداة للتعبير يمكن أن نستبدل بها أي أداة تعبيرية أخرى. لذا فاللغة هي المعيار الحقيقي الذي يتشيد به الفكر ويستقيم.

ويجب أن نعلم قبل الدخول في خضم الموضوع عن **علاقة الهوية باللغة أنه لا هوية بدون لغة وإنتاج فكري ولا ثقافة بدون هوية، ولا فكر بغير مؤسسات علمية متينة، ولا علم بغير حرية معرفية، ولا تواصل ولا تأثير إلا بلغة وطنية تضرب جذورها في التاريخ وتلبي حاجة الحاضر والمستقبل.**

أما عن مفهوم اللغة فهي ظاهرة اجتماعية واصطلاحية بامتياز تستند إلى مكونين متلازمين، الأول **حسي** والثاني **ذهني غير مادي**. ويمكن لنا تعريف **اللغة بأنها نسق من الإشارات والرموز، تشكل أداة من أدوات المعرفة، وتعتبر اللغة أهم وسائل التفاهم والاحتكاك بين أفراد المجتمع في جميع ميادين الحياة**. وبدون اللغة يتعذر نشاط الناس المعرفي. وترتبط اللغة بالتفكير ارتباطاً وثيقاً، فأفكار الإنسان تصاغ دوماً في قالب لغوي، حتى في حال تفكيره الباطن. أو هي عبارة عن رموز صوتية لها نظم متوافقة في التراكيب، والألفاظ، والأصوات، وتُستخدم من أجل الاتصال والتواصل الاجتماعي والفردي.

يؤكد خبراء العلوم الإنسانية أن ثمة أربع مسلمات أساسية ينبغي استحضارها عن عند معالجة مسألة اللغة، وهي كالآتي:

- ✓ اللغة وعاء الفكر وأداة التفكير.
- ✓ ووسيلة للتفاهم والتواصل الاجتماعي.
- ✓ وعنوان الهوية للفرد وللمجتمع.
- ✓ وترتبط اللغة بالثقافة والقيم الحضارية.

ولذلك تقوم اللغة بأربع وظائف أساسية بحسب العلماء المختصين في علم اللغة: **فالأولى هي وظيفة التواصل مع الغير، والثانية هي وظيفة تمثل الكون لأنفسنا في عقولنا، والثالثة والرابعة هما الوظيفتان الوجدانية والأدائية**، وهما مرتبطتان بالبحث عن تأويل المعنى، بحسب السياق ومقام الخطاب، ومن ثم، **فإن اللغة لا تقتصر على التواصل بين البشر فحسب، وإنما تشكل أساس**

الوجود الإنساني، إنها تشكل القانون الأول الذي يفرض نفسه على كل فرد داخل المجتمع خلال عملية التنشئة الاجتماعية التي تقوده إلى الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة. وعبر اللغة والثقافة، يتبادل الخضوع للقانون، مقابل الحصول على الهوية في إطار علاقة الجزء بالكل.

بذلك تكون اللغة هي من ولّدت الهوية، لأنها تجرد عالم التجربة إلى كلمات والالتقاء باللغة يجعلنا نتعالى عن التجربة الآنية، وما يمكننا من تشكيل تصور للذات. فالهوية مسألة لغوية في جذورها، ولذلك تُفهم ظاهرة الهوية بوصفها ظاهرة لغوية.

إن اللغة هي الأساس الذي يقوم على **مِخْيَال الأمة**[1]، ومن هذا الجانب نفهم أهمية اللغة المعيارية، وضوابط التأويل في لغة الخطاب، وهكذا، فإن المنظومة اللغوية هي بمنزلة بيت الكائن البشري، فيها ينظم أمور معاشه، ويخزن رموزه وثرواته. إنها تؤويه وتحفظ أسراره. ومن مشكاتها يرى العالم ويدركه. وهذا جعل الأديب الفرنسي **ألبيرمو كامو**، إلى أن يقول **نعم لي وطن، إنه اللغة الفرنسية**. ويقول الألماني **هيدجر إن لغتي هي مسكني، هي موطني ومستقري، هي حدود عالمي الحميم ومعالمه وتضاريسه، ومن نوافذها ومن خلال عيونها انظر إلى بقية أرجاء الكون.**

---

[1] نشأة مفردة " **المِخْيَال** " في الانثروبولوجيا الفرنسية على يد عالم التحليل النفسي الفرنسي **جاك لاكان**، وهي تعني فعل التأويل لما يعيشه الإنسان في علاقته بذاته أو لما يعيشه في علاقته بالآخر. بشكل أوضح، المخيال عبارة عن مخزن من الصور والتمثلات والرموز والحكايات والأساطير التي تشكلت تاريخياً في الذاكرة الجماعية أو في الذهن كنتيجة لعملية التأويل التي تحاول بها جماعة ما رسم واقعها الداخلي أو واقعها مع الآخر. أشكال المخيال وأنواعه متعددة ، والتعدد ناتج عن اختلاف بنية الحامل الاجتماعي والوظائف الإيديولوجية المنوطة به. يمكن لهذا المخيال أن يظهر كردة فعل أو أن يلعب دور الموجة في اللحظات الاجتماعية او اللحظات التاريخية العصيبة التي قد تمر بالجماعة، ويمكن للفاعليين الاجتماعيين تسخير المخيال في سبيل التعامل مع أي وضع يمر به الحامل الاجتماعي بما يتلاءم وأهدافهم.

ولا شك اليوم في أن الصلة وثيقة بين الهوية واللغة، وإن كان الجدل قائماً حول طريقة تبادل التأثير. فالمشكلة لا تكمن في ارتباط الهوية باللغة بحد ذاتها، بل تكمن في التعامل مع طريق ذات اتجاهين كما لو كانت طريقاً واحداً، فهناك من العلماء سخر كل اهتمامهم لمعالجة الكيفية التي يجري بها تشكيل اللغات الوطنية للهويات الوطنية. ولم يهتموا قط بكيف تشكل الهويات القومية. وهو ما تقوم به في الواقع بشكل عميق.

ولذلك لا توجد لغة محايدة، وكل لغة لقيم، وحامل لروح، فهي وسيلتنا لفهم العالم وتمثيله في أذهاننا وللتواصل مع الآخرين. وبقدر تعدد اللغات تتعدد تمثلاتنا للوجود. **إن اللغة تنظم طريق حياة الجماعات والأفراد وتشكل عاداتها أسس العالم الواقعي، فنحن نرى ونسمع ونعبّر بالشكل الذي نرى ونسمع ونعبر به لأن عادات الجماعات اللغوية قد هيأت لنا سلفاً اختيارات معينة في التفسير**. وهذه العادات تختلف من جماعة لأخرى، وما من أمة إلا وتتكلم بالشكل الذي تفكر به، وتفكر بالشكل الذي تتكلم به. فهي ترسخ تجاربها في لغتها، بما في ذلك التجارب الحقيقة والتجارب الخاطئة التي تنقلها إلى الأجيال اللاحقة.

وباللغة أيضاً يدوم المتخيَّل الجماعي، وتصاغ المؤسسات قبل أن تترجم إلى سلوكيات، ويُنقل المعيش اليومي أو يصاغ شفهياً أو كتابياً، أو يتخذ موضوعاً للتأمل أو ينقل كما هو، بوصفه شكلاً من الفكر المقولب. كذلك في التنشئة الاجتماعية للطفل، وتُنقل الظاهر الثقافية داخل الأشكال اللغوية الموافق عليها من قبل الجماعة. وهكذا فإن اللغة تكيف المواقف، وتعد سلفاً الأفراد والجماعات للفعل ولرد الفعل، وللتفكير بطريقة محددة.

واللغة هي التي تنتقل الأفراد من جماعة بشرية إلى مجموعة ثقافية، وهذا على وجه التمحيص يعني أن الرابطة اللغوية أقوى من الرابطة السياسية، لأن الجماعة البشرية إذا ترابطت سياسياً كونت مجموعة وطينة، وهذا لا يقضي

بالضرورة إلى التجانس الثقافي قد قام فعلاً بين أفراد المجموعة بمجرد الانضواء تحت الرابطة السياسية الواحدة. والتاريخ القديم ومنه المعاصر والحديث مليء بالشواهد الدالة، ويكفي أن نتبين كيف انفلقت كيانات سياسية كان يُظن أنها التحمت بمجرد انصهارها في سياج الدولة السياسية. ولكن سلطة الثقافة كانت أقوى فتفتت المنظومة إلى أثنية ثقافية شأن ما حصل في يوغسلافيا، وفي تشيكوسلوفاكيا، وفي ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي. أما الشاهد المضاد والذي يبرهن على أن السياسة والاقتصاد والإيديولوجيا هي جميعاً أضعف من الثقافة المتجانسة ومن اللغة المشتركة ومن التراث الفكري الواحد فهو توحد ألمانيا بعد سقوط جدار برلين.

أما فيما يتعلق **بالهوية الإسلامية** نجد أنها هوية متميزة عن غيرها تمتلك مقومات وجودها والحفاظ على ثقافتها وخصوصيتها. ومن الجدير بالذكر أن **الهوية الإسلامية تستوعب حياة المسلم كلها وكل مظاهر شخصيته فهي تامة الموضوع محددة المعالم والملامح، بالإضافة إلى إنها واضحة الهدف والغاية، فهي تمتلك مقومات وجودها وبقائها**، وتنحصر تلك المقومات باختصار شديد **بالعقيد الإسلامية** كمرجع أو مصدر أساسي لمختلف شعوب وقوميات وأمم العالم الأخرى الداخلة بالدين الإسلامي، بالإضافة إلى **اللغة العربية** لغة **القرآن الكريم** التي تعتبر عامل يجمع ويشمل جميع المسلمين على اختلاف قومياتهم وأعراقهم فكل مسلم عربي بالضرورة فلا يحتاج المسلم لأن يكون عربياً في النسب حتى تكتمل عروبته في نظر الإسلام، كما يلعب **التاريخ المشترك، والتراث الحضاري** (الذي ينحدر من خصائص أمة من الأمم المتفاعلة مع البيئة التي نشأت فيها) دوراً أساسياً في تحديد ملامح تلك الهوية، مما يشكل الوحدة الثقافية المشتركة بين أبناء الأمة الإسلامية النابعة من المقومات الأربعة السابقة، وأخيراً **التكوين النفسي المشترك** (الأخلاق، العادات والتقاليد،

المشاعر، والأحاسيس، والأعياد، ومناسبات الأفراح والأحزان، ... إلخ) التي كان للدين الإسلامي الفضل والدور الأعظم في تشكيلها وصقلها وتهذيبها.

وهكذا نجد أن الهوية الحضارية لأمة من الأمم هي القدر الثابت والجوهري والمشترك من السمات العامة التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الأمم والحضارات، حيث تعتبر اللغة بعد العقيد الدينية بطبيعة الحال المكون الهام والمفصلي للهوية الثقافية والحضارية، فهذه تكاد تكون بديهية، لأن اللغة ثقافة وحضارة وليست فقط أداة تواصل، إنها ليست مجرد أداة للفكر، بل هي الفكر ذاته وهي مرشحة بالتالي لأن تشكل إحدى أهم الهويات للفرد المعاصر المتعدد الهويات، بل إن الهويات الأخرى تصاغ بواسطتها.

- الخاتمة:

ثمة علاقة وثيقة بين الهوية والثقافة، بحيث يتعذر الفصل بينهما، **إذ أن ما من هوية إلا وتختزل ثقافة، وقد تتعدد الثقافات في الهوية الواحدة**، كما أنه قد **تتنوع الهويات في الثقافة الواحدة**، وذلك ما يعبَّر عنه بالتنوع في إطار الوحدة، فقد تنتمي هوية شعب من الشعوب إلى ثقافات متعددة، تمتزج عناصرها، وتتلاقح مكوناتها، فتتبلور في هوية واحدة، وعلى سبيل المثال، **فإن الهوية الإسلامية تتشكل من ثقافات الشعوب والأمم التي دخلها الإسلام سواء اعتنقته أو بقيت على عقائدها التي كانت تؤمن بها، فهذه الثقافات التي امتزجت بالثقافة العربية الإسلامية وتلاقحت معها، العربية الإسلامية، فهي جماع هويات الأمم والشعوب التي انضوت تحت لواء الحضارة العربية الإسلامية، وهي بذلك هوية إنسانية، متفتحة، وغير منغلقة.**

كما تجسد العلاقة بين الهوية والثقافة، علاقة الذات بالإنتاج الثقافي، **ولا شك أن أي إنتاج ثقافي لا يتم في غياب ذات مفكرة**، دون الخوض في الجدال الذي يذهب إلى أسبقية الذات على موضوع الاتجاه العقلاني المثالي، أو الذي يجعل

الموضوع أسبق من الذات، وإن كل ما في الذهن هو نتيجة ما تحمله الحواس وتخطه على تلك الصفحة (ذهن الإنسان) كما يذهب لوك، والاتجاه التجريبي بشكل عام.

الخلاصة أن الذات المفكرة تقوم بدور كبير في إنتاج الثقافة، وتحديد نوعها وأهدافها وهويتها في كل مجتمع إنساني وفي كل عصر من العصور، وبناءً على ما سبق فإنه يصعب أن نجد تعريفاً جامعاً مانعاً لمفهوم الهوية الثقافية، فالهوية الثقافية تختلف من مجتمع إلى آخر ومن عصر إلى عصر، كما تختلف باختلاف التوجهات الفكرية والإيديولوجية لمنتجي الثقافة.